ثنائية الإنساني والمادي

قراءة في قصص "الشوارع الضالة" لـ وليد الزيادي

د. شريف الجيار

بعد خوضه غمار القصيدة الشعرية، ومُتخيَّلها المجازي، وصورها المتوهجة، وتراكيبها المتمردة عن المألوف اللغوي، يطرح المبدع اليمني وليد الزيادي، باكورة إنتاجه السَّردي، عبر مجموعته القصصية "الشوارع الضالة"؛ التي تضم بين دفتيها عشرين قصة قصيرة، كتبت بين عامي (2012 – 2016م)، تجسدت في: "لوحة وطن، مول 2030، سعاد البين، لم تكن وحدها، الخيانة، فلانتين، لا مبالاة، هستيريا، غيرة، الهاتف رقم (1)، لعنة عطا الله، سيد تكنولوجيا، رائحة الموت، ثلاجة رضوان،

الشوارع الضالة، ضيـاع، الوهـم، تعب، لص، عـودة".

والقـاريء للخطـاب السَّردي لهـذه المجموعـة القصصية، يدرك أنه حيال سرد إنسـاني مفعـم بالنوسـتالجيا، صوب الأماكـن الماضوية، والطبيعـة الفطريـة للإنسـان، قبل أن تغـزو التكنولوجيـا حياته، وتغير مـن رؤيته للواقع المعيش، وتبدل موقفه تجاه نفسـه، وتجاه المشـاركين له في هـذا الكوكب؛ لـذا تهيمن ثنائية الماضي والحاضر، الإنسـاني والمادي، البشري والتكنولوجي/ الرقمي، الرجل والمرأة، السـلام والحرب، على معظم قصص المجموعة، وسردها الخارجي، وراويها العليم، الذي أخذ يرصد لنا موقف الإنسـان مـن عالمه، عبر ذاكرة مثاليـة، تنتصر للماضي، وللإنساني، وللحب المفتقد، وللسلام المنتظر.

ويخـوض الـراوي عنـد وليد الزيـادي، مغامرة الكشـف عـن واقع التيه، الذي أضحى الإنسـان العربي جزءاً منه، فلم يسـتطع مجاراة القفزة التكنولوجية الرقمية، التي واكبت عولمة النسـق الدولي، لاسيما الأجيال التي سبقت هذا العصر، وأُقحمت فيه بحكم النقلة الزمنية، فأصبحت في صراع نفسي مع هذا الواقع الجديد، الذي يلائم طبيعة الأجيال الجديدة، التي تعد ابنة هذا النظام التكنولوجي الرقمي؛ لذا نجد الأنماط الإنسانية لهذه المجموعة القصصية، تقف في مرحلة البين بين، بين ماضيها وذاكرته وفطرتـه، وبين الحاضر المادي الجديد، الـذي فرض قوانينه وماديته، على

حياة الإنسان، لاسيما الإنسان العربي، الذي أُصيب بحالة من النكوص والارتداد، للبحث عن ماضيه ووطنه وذاته، في ظل صدمة حضارية جديدة، تفرض واقعها وقوانينها، على هذا الإنسان، الذي استيقظ على واقع مادي، بشوارع مزدحمة، ومطارات، وأبراج عالية، ومدن؛ حيث "استمر في الرسم. صعد بإحساسه عالياً، تجاوز القمم، كاد أن يلمس نجم "سهيل". لكنه لم يستطع الصمود. هوى سريعاً إلى الأرض. الفرشاة والذاكرة سقطتا معاً. رُدّ إليه بصره. نظر إلى اللوحة.

لم يجد سوى شوارع مزدحمة، ومطارات، وأبراج عالية، ومدن"/ من قصة "لوحة وطن".

ويستعين الراوي عند الزيادي ببنية المفارقة، والمشهدية البصرية، التي اعتمدت على الفعل الماضي، والجمل القصيرة، التي كثفت من سرعة إيقاع السرد، بما يتوائم مع طبيعة القصة القصيرة، ومواقفها السريعة، لا سيما في عصر التكنولوجيا، الذي يعيشه الإنسان الآن وفي المستقبل القريب؛ حيث أصبح جزءاً أصيلاً من هذا العالم الرقمي، الذي حول حياته كلها إلى عالمية المادة، وتراجعت المشاعر الإنسانية الطبيعية، حتى أصبحت الفطرة غريبة في واقع التكنولوجيا، لا سيما مع الأجيال الجديدة، فالجميع مُحاط بالتكنولوجيا، منذ طفولتهم، فهم في مول 2030م العام الذي يتعايش فيه الجميع، لا سيما الأطفال بالتكنولوجيا، إلا طفل

واحد استمر في البكاء، لأنه أراد المشاعر والأمومة، التي لم ولن يجدها الإنسان -بسهولة- في عصر المادية؛ لذا "اضطرت الأم إلى أن تأخذه وتضمه إلى صدرها. استمرت في الطبطبة على ظهره، وبشعور لا إرادي بدأت تدندن له لحناً. راحت تغني له بهدوء. شعر بالاطمئنان وبدأ بكاؤه يخف حتى توقف. المارة ينظرون إليها باستغراب شديد. بدأوا يقفون وينظرون إليها. تناقلت الهواتف النقالة الحدث. وبسرعة البرق تجمّع كل من في المول حول هذه الأم ورضيعها. السيارات توقفت عن الحركة. جميع مَنْ في المدينة يُسارع إلى المول...

تناقلت وسائل الإعلام المرئية والمقروءة الخبر حول العالم كله، تحت عنوان "حادث غريب والأول من نوعه في مول 2030"/ من قصة "مول 2030".

فضلاً عن ذلك، يكشف الراوي العليم الجانب السيء لاستخدام التكنولوجيا، في واقعنا العربي، الذي يؤدي -أحياناً- إلى تدمير الترابط الأسري، والخيانات الزوجية، لأننا غير مؤهلين لاستخدامها، بالشكل العملي؛ فنحن أمام زوج يصر على الالتصاق بماضيه، وأرضه التي تجسد ذكرياته وأسرته وجذوره، بينما زوجته تسعى لعلاقة جديدة، مع رجل آخر، "حينما كان في البيت يستعد للاحتفال بعيد ميلادها، كانت تحتفل بالمناسبة نفسها مع رجل آخر تعرفت إليه عن طريق الشبكة الإلكترونية،

نظراً لانشغالات زوجها المهنية، وتسلية لأوقات فراغها. رفضت مراراً وتكراراً الخروج مع الرجل الغريب؛ لكنها وافقت في النهاية.

ترددت كثيراً، وكانت خائفة. لكنه فتنها بثقته بنفسه وأسلوبه الناعم الرقيق..."/ من قصة "لم تكن وحدها".

وفي قصة "سيد تكنولوجي" يكشف الراوي الآثار السلبية للتكنولوجيا على حياة الإنسان، وسيطرتها على حياته، حتى كادت أن تقتله، إذا حدث تغيير في شفرتها، فالإنسان مهم وباق، كما نرى في شخص "سيد تكنولوجيا" رجل الأعمال الذي كان مغرماً بالتكنولوجياً، "... وبالتنسيق مع أكبر الخبراء في العالم، ومن بلدان شتى، قام السيد تكنولوجيا بتصميم قصر ضخم بأحدث الأنظمة الحديثة: تنفيذ كافة الأوامر عن طريق الصوت...

حاول السيد تكنولوجيا أن يُعرّف الهاتف إليه. خلع قميصه المتسخ ومسح به آثار الدم عن وجهه؛ ولكنه لم يستطع أن يزيل آثار المرض والتعب والخوف، وما إن رأى الهاتف وجهاً غير مألوف لديه، حتى أصر على الصمت وعدم فتح أزراره"/ من قصة "سيد تكنولوجيا". على أن "سيد تكنولوجيا" أضحى سجين هذه الرقمنة، التي لم تستطع التعرف عليه، إثر تغير صوته، نتيجة لإصابته بالأنفلونزا، فكاد أن يموت،

في غيـاب العنـصر البشري، الـذي يعلن وجـوده وأهميتـه، مهما طغت التكنولوجيا على حياتنا.

وعلى جانب آخر في قصص المجموعة، يطرح الراوي العليم، عبر بنية سردية بسـيطة، منظوره السَّردي تجاه الواقع الإنسـاني الاجتماعي، الذي أُصيـب بالخيانة، وذوبان العاطفـة في واقع مادي، وقتـل الزوجة لمجرد الشك، كما نرى في قصص "الخيانة، فلانتين، وغيرة، والهاتف رقم واحد، ...". ويُصعِّد السّـياق السَّردي للمجموعة القصصية، من غربة الإنسان واغترابـه، حتـى في وطنه، الـذي يفقده حريته، ويسـلبه إرادتـه، فيقرر الهجـرة، كما في قصة "الشـوارع الضالـة" المفعمة بالنوسـتالجيا، والحنين للوطـن المفقود، الـذي تغير للأسـوأ، في ملامحه وفي مفرداتـه الصغيرة؛ لـذا "واصل المشي بين الأحياء والشـوارع وكأنه إبرة تجُـرُّ خلفها خيوط الذكريات تُرقّع شـوارع وأحياء صدئت وشـاخت وتغـيرت الكثير من ملامحها وصُبغت سماؤها بأدخنة سوداء، وانتشرت بين أرصفتها المتسخة جِراء الشوارع الضالة"/ من قصة "الشوارع الضالة".

ويؤسـطر الراوي، بعض الأنماط الإنسـانية، داخل سـياقه السَّردي، لا سـيما في المجتمع الشـفاهي المنغلـق، الذي يُكثِّـف مـن خيالاتـه، التي تطـرح النمـوذج المتوهم، بعيداً عن التفسـير العلمـي الموضوعي للظواهـر، كـما نرى في قصـة "لعنة عطـالله"، الذي ظهر فجـأة واختفى

فجـأة، في الـوادي الذي يبعـد عن الـمدينـة، فـ"منذ أن جـاء عطا الله، أصبـح الوادي في أمـان من الوحـوش والحيوانات الضارة والمفترسـة. لم يكـن يحمـل بندقية أو خنجراً، بـل كان يتصارع مع الذئـاب والضباع وكأنه شمشـون الجبار. كان يطارد أصواتها في الليل، وحده، وكان يطلق زئيراً كزئير الأسد.

وعندمـا يصبـح الأهـالي، كانوا يجـدون رؤوس الضبـاع معلقة على الأشجار الضخمة.

تناقلوا عنه القصص والأسـاطير. يقولون إنه أتـى من وادي الموت، وإنـه يتغذى عـلى الأفاعـي والحيوانات المفترسـة، ويأكل اللحـم النيئ وأوراق الشجر.

البعـض قـال إنه سـوف يعـود مثـل الطوفـان، ويذهـب بالأخضر واليابـس... البعـض الآخـر قـال إنـه مـات وأكلتـه الـكلاب الضالة والحيوانـات المفترسـة... آخـرون قالـوا إن العرَّافة أرسـلته مع رؤوس الثيران إلى وادي الموت...

استمر خوفهم وقلقهم سنوات طوالاً، وتحول إلى روح شريرة تسكن الـوادي؛ فعندما تحـل عليهم المصائـب والكوارث يظنون أنهـا لعنة من لعنات عطا الله"/ من قصة "لعنة عطا الله".

ولم يستمر الراوي في الشكل المعتاد للقصة القصيرة، بل نجده يطرح شِّعرية القصة القصيرة جداً، التي تعتمد على التكثيف والاختزال اللغوي؛ لا سيما في قصص "ضياع، والوهم، وتعب، ولص، والعودة"، وكلها سياقات لـمُتخيَّل إنساني اجتماعي، يطرح حالة التشظي الإنساني، وحياة التيه والوهم، المهيمنة على واقعنا المعيش، كما نرى في قصة "العودة"، "يعود إليها بألوان الطيف الستة...

تاركاً اخضرارَ قلبه في المكان الذي جاء منه"/ من قصة "العودة".

إننا حيال تجربة سردية جديرة بالنظر النقدي، رغم بساطة شعريتها، وسلاسة لغتها، فهي باكورة إنتاج لشاعر يمتلك أدواته، في حقله السَّردي الجديد.